

هل تصبح سوريا رجل المنطقة المريض؟

2016-04-20 عريب الرنتاوي

اجتماع الحكومة الإسرائيلية على أرض الجولان المحتل، ودعوة رئيسها من هناك، العالم بأسره للاعتراف بـ "إسرائيلية" الهضبة المحتلة منذ نصف قرن، إنما يشف عن قراءة إسرائيلية للمشهد السوري العام، تقوم على "نظرية الرجل المريض" الذي آن أوان توزيع تركته على الورثة أو يعتقدون أنهم كذلك.

هي "حصّة إسرائيل"، تريد حكومة اليمين واليمين المتطرف، اقتطاعها في لحظة ضعف سورية بامتياز... مستغلة انشغال السوريين بحروبهم الداخلية وحروب الآخرين عليهم... ولقد كان حرياً بهذا الموقف الاستعماري - التوسعي، أن يستتر في السوريين "حميتهم" الوطنية، ويسرع مسار مفاوضاتهم العائرة في جنيف، لكننا بدلاً من ذلك، رأينا دعوات لتأجيل المفاوضات، وإشعال الجبهات وإعلان حرب الجميع ضد الجميع، لكأن بعض أطراف المعارضة، تلقت "أمر عمليات" في آن واحد، من عواصم المنطقة المتحالفة، بقلب ظهر المجن لجنيف ومساره، والسعي لقلب موازين القوى على الأرض.

لم تنبر المعارضة للرد على المواقف الإسرائيلية، لكأن الأمر لا يعنيها، أما تصريحات نائب وزير الخارجية السورية، فقد جاءت من باب "لزوم ما لا يلزم"، فسوريا خرجت حتى إشعار آخر، من حسابات الصراع العربي - الإسرائيلي، والمؤكد أن الحديث عن "جميع الخيارات" بما فيها "خيار المقاومة"، لم يجد من يصرفه في أسواق المال والأعمال.

على أية حال، ليس الإسرائيليون وحدهم من يتطلع لنهش حصته من "الكعكة السورية"... أطراف إقليمية أخرى، تفعل الشيء ذاته... تركيا التي كانت أعين رئيسها متمسرة صوب المسجد الأموي للصلاة فيها، إيذاناً بالانتصار الكبير للسلطان وجيوشه وحاشيته، تركيا لم تغادر أطماعها في شمالي البلاد، وصولاً لحلب، تارة تحت عنوان المناطق الآمنة، وأخرى لحماية التركمان والعرب من الأكراد، وثالثة في سياق الحرب على الإرهاب.

أما إيران، فقد قررت لأول مرة منذ انتصار ثورتها الإسلامية في العام 1979، إرسال قواتها النظامية للقتال خارج حدودها، بل وبعيداً عن حدودها، وبصورة رسمية ومعلنة، وهي التي اعتادت "الاستعانة على قضاء حوائجها بالكتمان"، وفضلت اعتماد "القيادة من الخلف" وتبنت تكتيكات "حروب الوكالة"... سوريا "درة تاج" الإمبراطورية الإيرانية، وعنوان الدور الإقليمي لإيران في شرق المتوسط، وهي وإن كانت تسعى في السيطرة عليها جميعها، فلا أقل من إحكام القبضة على "الأجزاء المفيدة" منها، من باب أضعف الإيمان، أو "الخطة ب"، إن جاز التعبير.

السعودية في المقابل، يهملها أن تكسر "الهلال الشيعي" في حلقة السورية، مهما كلف الأمر وبلغت الأثمان... الأثمان التي يدفعها السوريون بالطبع، بشراً وشجراً وحجراً... وليس المهم كيف ستنتهي سوريا بعد سقوط النظام، فمن جاء بمحمد علوش كبيراً للمفاوضين، لا يمانع أن يأتي به وزيراً للدفاع، أو حتى رئيساً للحكومة، المهم كسر الهلال في حلقة الدمشقية، شديدة الأهمية، من مختلف النواحي والأبعاد.

حتى السوريين أنفسهم، بدأوا يتعاملون مع بلدهم، بوصفه بلداً مريضاً... استعجال الأكراد للفيدرالية في سوريا، يندرج في هذا السياق، وإلا لكان بالإمكان الانتظار حتى يخرج الدخان الأبيض من الأسود، من مداخن جنيف وفيينا... وليس مستبعداً أن ما دار في خلد الأكراد، قد دار في خلد مكونات أخرى، ما زالت تستعين على قضاء حوائجها بالكتمان هي الأخرى.

من يستمع لتصريحات السياسيين السوريين، سلطة ومعارضة، يدهش لحالة الإنكار التي يعيشونها فبلادهم تكاد "تفِرُّ" من بين أصابعهم، قطعة قطعة، ويدهش أكثر، حين يرى "النبرة الانتصارية" التي تميز أحاديثهم وخطاباتهم... من قائل بضرورة أن تصل دبابات الجيش حتى أبعد نقطة حدودية، على جسد المعارضات بالطبع، إلى "ناعق في الخراب" يدعو لإشعال الأخضر واليابس، وإحراق الأرض من تحت أقدام النظام وبيئته الحاضنة... جميعهم في هذا الصدد، أسود هصورة، لكنها من النوع الذي يصح فيه قول الشاعر: أسد علي وفي الحروب نعامة، سيما حين تكون الحرب مع إسرائيل.

الزوايا الحادة في مفاوضات جنيف وكيف يمكن تدويرها؟

المسافة بين النظام والمعارضة السوريين، ما زالت بعيدة... النظام يرفض البحث في مصير الأسد، تاركاً الأمر لصناديق الاقتراع، والمعارضة تطلب تنحي الأسد قبل بدء العملية الانتقالية في سوريا... داعمو الفريقين المتصارعين، يتوزعون على مروحة أوسع من المواقف والرؤى... تركيا وقطر ومعهما السعودية، يبحزون بقوة إلى جانب المعارضة ويؤيدون مطلب التنحي "المبكر"، طهران وحزب الله يدعمان الأسد، بوصفه خطأ أحمر كما قال ولايتي قبل يومين... أما التوافق الروسي الأمريكي، فيبدو ملتبساً بشأن مصير الرئيس الروسي.

مصدر الالتباس يكمن أساساً في غموض الموقف الأمريكي، موسكو قالت كلمتها منذ بدء الأزمة: مصير الأسد، يقرره الشعب السوري في انتخابات حرة ونزيهة، تحت إشراف دولي مناسب، كجزء من خريطة فيينا والقرار 2254 لحل الأزمة السورية... جون كيري يذهب في هذا الاتجاه، فيما مراكز أخرى لصنع القرار في واشنطن، كالكونغرس وبعض أوساط الإدارة، ما زالت على موقفها المطالب بالتنحي، لا لأن الأسد جزء من المشكلة وليس جزءاً من الحل، بل لكونه "المشكلة" برمتها من وجهة نظر هذه المراكز.

إن ظنَّ النظام السوري، أن المرحلة الانتقالية، ليست سوى "تعديل وزارتي" يجريه على حكومة السيد وائل الحلقي، أو غيره من رؤساء حكومة الأسد المعينين، فهو مخطئ تماماً، وإن ظلَّ على موقفه هذا، فتلكم ستكون "نهاية مطاف" الحل السياسي ومسار فيينا - جنيف... وربما لهذا السبب بالذات، دعت موسكو حليفها الدمشقي، إلى إبداء المزيد من المرونة والاستعداد لتقديم "تنازلات مؤلمة".

وإن ظنت المعارضة، سيما تلك التي توصف بـ "المعتدلة"، أن وظيفة مسار الحل السياسي، هي استبدال رموزها وشخصها برموز النظام وشخصه، وتقديم سوريا على طبق من فضة لفرسانها الذين قضوا آخر خمس سنوات في الفنادق والمنتجعات وردهات المؤتمرات واستوديوهات الفضائيات، فتلكم بلا شك، "الخاتمة" غير السارة، لمسار الحل السياسي... الحل السياسي للأزمة السورية، لا بد أنه سيقع في منزلة وسط بين المنزلتين والموقفين، وهنا يأتي دور "الدبلوماسية" في تدوير الزوايا الحادة في مواقف الأطراف... هنا تكمن قيمة التوافق الأمريكي - الروسي، الذي بات صمام أمان التهدة والحل السياسي وشبكة الأمان الصلبة للأطراف المتفاوضة.

ثمة قوة زخم دولية دافقة ودافعة باتجاه استمرار مساري التهدة والتفاوض، فتحت تهديد طوفان اللجوء السوري، وتفاقم خطر التهديد الإرهابي، يسارع العالم إلى بذل الجهد لإطفاء هذه البؤرة المتفجرة، وإغلاق بوابات جهنم التي فتحت على مصاريعها مهددة الأمن والسلم الدوليين... وتحت ضغط تداعيات الأزمة السورية، ومفاعيل "مبدأ الدومينو" على دول الجوار الإقليمي والعربي لسوريا، تبدي الأطراف الإقليمية وهناً متزايداً ورغبة متناقصة في الاستمرار بالحرب وتوسيع دائرتها، هذا عامل آخر، يعطي الأمل بفرص نجاح مسارات الحل السياسي.

لكن هذه العوامل جميعها، لم تحل حتى الآن، وقد لا تحوّل في المستقبل، دون اختبار محاولات قلب الطاولة وتعديل موازين القوى على الأرض، فالمفاوضات لا تجري في جنيف إلا في "شقها السياسي والدبلوماسي"، أما المفاوضات الحقيقية، فتجري في أرياف حلب وإدلب واللاذقية وعلى الجبهة الجنوبية، وبأدوات وأسلحة فتاكة... ولطالما قيل، أن الحرب هي امتداد للسياسة ولكن بوسائل أخرى.

ويزداد المشهد السوري الميداني تعقيداً، حين تتداخل الحرب الكونية على الإرهاب، بحروب "الإخوة الأعداء" بالصراع بين النظام ومعارضته و"حروب الوكالة" على شتى الجبهات... الأمر الذي يدفعنا للتشاؤم في إمكانية وقف إراقة دماء السوريين في المدى الفوري والمنظور، ويدفعنا للاعتقاد، بان جولات إضافية من القتل والتدمير، ما زالت بانتظار السوريين، وأنها أمامهم وليست وراء ظهورهم.

جنيف الجديد الذي بدأ رسمياً بالأمس، يبدو مختلفاً عما سبقه، فهو يحمل في طياته احتمال "التفاوض المباشر" بديلاً عن مفاوضات "الغرف المنفصلة" والجولات المكوكية للموفد الدولي ومساعديه... وهو مثقل بجدول أعمال جوهرى، من الحكومة/ الهيئة الانتقالية أو الموسعة، إلى "مبادئ الإعلان الدستوري" إلى بقية العناوين التي تشكل هيكل الحل وعناوينه الكبرى... وهذا بحد ذاته، نجاح للدبلوماسية وللتوافق الأمريكي الروسي، وللسيد دي ميستورا... لكن من السذاجة التكهن بان أزمة السنوات الخمس، ستحل في عدد محدود من الجولات التفاوضية، فمشوار سوريا مع الأمن والاستقرار واستعادة حياتها الطبيعية، ما زال طويلاً ومؤلماً.

.....
* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية